


الجمهورية العراقية ـ وزارة الاعلام

# فارس القسطل

## عبد القادر الحسيني

عاصم الجندي


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

منشورات وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية

سلسلة

الاعلام والمشهورين

( ٢ )

١٩٧٧

عاصم الجندي

# فارس القسطل

## عبد القادر الحسيني

رواية تأريخية

« لماذا عبدالقادر الحسيني ، في هذه الأيام ، لان المأساة واحدة ، والمؤامرة واحدة ، والاصرار على المقاومة واحد .

قد ينتصر المتآمرون والخونة المأجورون ، جولة وجولات . ولكن حتمية الانتصار ، هي دائما من حق الشعوب المناضلة .

فعبدالقادر ، كان في يعبد مع القسام ، وفي القسطل مع سعيد العاصي الى يوم استشهاده، وكان فيجرش مع أبو علي اياد. واخيرا كان في لبنان ، في تل الزعتر بالذات .

ولكنني أكاد اراه الآن ، في مشارف دمشق منتصرا ، في دمر حيث كان يحلم ان يعيش بقية أيامه .

لماذا عبدالقادر الحسينى الآن . لان الثورة الفلسطينية مجسدة بانكساراتها وانتصاراتها . بالامل الكبير بانتصارها . »

# طفولة يتيم

ـ ترى ، كيف سيعيش الطفل من غير امه ؟

وانهمرت دموع الجدة العجوز .

ـ لا بأس عليك يابنى . انه حكم الله .

وشرد الكهل الوقور ، يغالب دمعا يوشك ان يتحدر ، من عينين نسريتين . والتف بعباءته السوداء .

مشى خطوات حتى أصبح في صحن « الدار الكبيرة » . ووقف قرب زيتونة دهرية مهيبة الظلال . وامعن تحديقا في قلب العتمة الوافدة .

لم يكن الآب المفجوع بام عياله ، سوى موسى كاظم الحسيني .

اما الطفل ، فهو عبدالقادر ، الذي لم يربُ على السنتين في العام ١٩١٠ .

كان الأب رئيسا للجنة التنفيذية العربية . وظل كذلك حتى وفاته .

كما كان رئيسا لبلدية القدس . وهو الى هذا وذاك ، والحق يقال ، اب الحركة الوطنية في فلسطين ، منذ بدايات العشرينات .

وقد جرت العاده ، في الحي الحسيني من القدس القديمة ، ان يسموا بيته ،بالدار الكبيرة ، لكثرة ما يؤمها من أضياف ، ولأنها موئل لكل عان وطريد . كما ان الاجتماعات الكبرى ، كانت تعقد عادة في بهـــوها الكبير .

حين هــدأ جأش الوالد . وسكنت غوارب عذاباته ، في سكون الليل وهدأته ، عاد فدخل البيت مــن جديد .

كان الطفل يلهو بلعبه بين يديه ، ولكنه يبدو أكبر منها .

في صفحة وجهه الصفاء ، تطل تساؤلات مستقبل باكمله .

كانت له مهابة الكبر ، ورنوات ، على عذوبتها ، توحي بفِكــر ولدت قبل أوانها .

تملّى في قسمات وجهه طويلا . نقّل البصر بينه وبين الجدث المسجى قريبا منه . وتنهد متلفتا الى العجوز ، مخاطبا الطفل :

ــ لتكن فلسطين امك بعد اليوم يا بني .

وابتسم عبدالقادر فجأة . فأطل فجر طفولي صبوح وعذب . غمر أرجاء الغرفة . برغم مهابة تلك اللحظات ومأساويتها ، وتعلق بعباءة ابيه . فحمله ، على غير عادته ، اذ لم يكن في تلك الأيام ، من عادة الرجال ان يحملوا أطفالهم .

لفه بعباءته ، وخرج به الى حيث أضيافه . وعاد به بعد قليل ، وقد أغفى ، ليضعه في احضان جدته .

ومرت الأيام والسنون ، ودرج عبدالقادر في رحاب « الــدار الكبيرة » . وكان عاما تلو عام ، يسائل الجدة الصبورة عــن امه . فتجيبه انها مسافرة .

ولم يعوض حنان الجدة والأب الحدوب ، عن حنان الام . فكان يحز في نفسه الطفلة ، ان يرى اترابه ، وكل له امه التي تحضنه ، من دونه هو . وترك ذلك في اعماقه ، احساسا خفيا بالمأساة ، وما يشبه الغصة الدائمة ، والحرقة الخفية .

في سنواته الأولى ، ارسل به ابوه الـــى كتاب الحي . وكان

« الشيخ حسن » معلمه الاول . فاتقن على يديه اصول اللغة ، وعلمه آي الذكر الحكيم . واخبار وسير الاولين . وظل حتى نهاية أيامه يحب قراءة تلك السير ، والتاريخ العربي القديم .

كان الوحيد بين التلامذة ، الذي لم ينل قسطه من قضبان الرمان والزيتون ، التي كان يسوط بها الشيخ حسن رفاقه . لاسباب عدة ، أولها جده واجتهاده وتفوقه على أقرانه . وكونه ابنا لزعيم وطني كبير . وربما ، وهذا هو الأهم كما يبدو ان الشيخ ، كان كلما تطلع الى عين عبدالقادر الصغير ، احس بما يشبه التهيب والرهبة . وكان ما يألو ينبه اباه ، الى الشأن العظيم الذي سيكون عليه ابنه في المستقبل .

كانت ملامح القيادة واضحة على قسماته منذ طفولته المبكرة تلك .

لم تكن في فلسطين تلك الأيام مدارس وطنية بكل معنى الكلمة. فاضطر ابوه الى ارساله لمدرسة صهيون الانكليزية الابتدائية .

يبدو ان الانكليز ، منذ تلك الأيام ، كانوا يخططون لفلسطين صهيونية ، بدليل مثل هذه التسميات لمدارسهم ومؤسساتهم .

وكان اسم المدرسة يثير في نفسه الصغيرة شعورا مبهما بالانقباض والتأفف .

ـ أبت ، لماذا لا يسمون المدرسة باسم المدرسة العربية ؟ .

ـ لعن الله الاجانب يابني . لابد أنهم اسموها كذلك ، لريبة في نفوسهم .

ـ لماذا لم ترسل بي الى مدرسة اخرى ؟ .

ـ في المرحلة الثانوية سافعل . لو كان هناك غيرها ، لما ارسلت بك اليها . المهم ان تظل متفوقا في صفوفك ، و « تحط على عين » التلامذة « اليهود » والانكليز .

وتنتهي سنوات المرحلة الابتدائية ، وينتقل عبدالقادر الى كلية « الروضة الوطنية » للمعارف .

كان الوقت في العشرينات ، من مطلع هذا القرن . ويومها قررت اللجنة التنفيذية العربية ، بدء عملها السلبي ضد الانكليز .

وكانت مظاهرات وصدامات شهدها عبدالقادر اليافع ، وعاش احداثها . كما شارك في التظاهرات التي قام بها طلبة المدارس .

وظل يذكر حتى آخر أيامه ، أول شهداء تلك المرحلة ، الذي سقط برصاص الانكليز قرب بيتهم . وهو من آل البديرى .

كان يتساءل ، لماذا يأتي الجند الغرباء الى بلادنا ؟

لماذا يقتل الانسان العربي برصاص الغرباء في بلاده ؟

في تلك المرحلة ، أخذ الأب يفكر بارسال ابنه الى احدى الدول العربية ، ليتم تحصيله . لانه ، بثاقب نظره وبعد بصيرته ، كان يعرف اكثر من سواه ، مدى اهمية العلم لانتصار قضية الوطن . وهكذا ، لم يكد ينهي المرحلة الثانوية ، وكان في السادسة او السابعة عشرة من عمره ، حتى أرسل به الى مصر ، ليدرس الرياضيات في الجامعة الامريكية في القاهرة .

كانت رحلة القطار طويلة الى مصر . حافلة بمشاعر الحزن ، غير المفسر ، بالنسبة للشاب الجالس قرب النافذة ، يشرد عبر سهول فلسطين الخضراء ، واحساس مودع يغمر روحه بألف ظل وظل .

ومرت سنوات الدراسة ، حافلة بالنشاط الوطني الدؤوب . فقد شكل نوعا من التنظيم السري ، للطلبة الفلسطينيين في الجامعة . بالتعاون مع الطلبة المصريين والعرب . وشارك في كل التظاهرات التي كان ينظمها طلبة الجامعات للتنديد بالاستعمار والمطالبة بالجلاء .

كان يحس انه وهو يقارع الاستعمار الانكليزي الجاثم على صدر الشعب المصري ، انما يقارعه ايضا في فلسطين .

معركة التحرير والتحرر واحدة اذن في الوطن العربي .

وقد ساعد كل ذلك على صقل مشاعره وافكاره القومية اكثر

فأكثر . والتي كان قد تشرب بها في بيئة البيت ، على يدي والده الوطني الكبير .

الا ان نشاطاته السياسية المحتدمة ، لم تؤثر أبدا على تحصيله . على العكس ، فنتيجة لقناعته الراسخة ، باهمية التحصيل العلمي في خوض معركة التحرر مستقبلا ، فقد كان يصر ، على ان يظل متفوقا في جميع صفوفه . فيقبل على الدرس بنهم واصرار لا حد لهما .

لم يكن عنده اي وقت للهو والفراغ . كانت كل اوقاته مملوءة بالعمل السياسي أو الدرس والتحصيل ، ولا شيء غيرهما .

ورغم انه ، كانت له كل مميزات الشباب المؤهل للهو والملذات ، فهو فتى نضر العود ، بهي الطلعة ، ذو شخصية ساحرة ، وسمعة تملأ آفاق الجامعة بطيبها . الا ان لذته الوحيدة كانت في الدرس والنضال . ولطالما كان يرد على بعض تساؤلات رفاق الدراسة حول هذا الجانب الغريب من حياته ، كما يرونه هم ، يقول المتنبي :

« تركت لاطراف القنا كل لذة » ...

ومع ذلك ، فلم يكن له بد كما يبدو ، من ان يتأثر بالزميلة الوحيدة معه في صف الرياضيات .

كانت هادئة ، رقيقة ، جادة ، وعلى قدر لا بأس به من العذوبة والجمال . وكان اكثر ما يقربه اليها ، حسها الوطني الوقاد . وتأكيدها على اهمية دور المرأة ، في تلك الايام البعيدة ، في المجتمع والقضية الوطنية معا . فجمعت بيتهما صداقة عاطفية عميقة ، مبنية على اساس من اللقاء الفكري والروحي العميق .

الا ان تلك العلاقة ، التي شدته الى «سلمى » ظلت في حدودها هذه . ولم تتجاوزها الى عبث الشباب ، بشؤونه وشجونه . وظل يحمل لها أطيب الذكرى فيما بعد . الا انها ذكرى دفينة ، قل ان يفصم عنها ، حتى لأقرب الخلّص من رفاقه اليه .

ـ هذه القصة لا علم لي بها في حياة والدي . ولا ادري ان كانت ضرورية للروايه ؟ .

– يا اخي غازي ، انا لا اكتب تاريخا كما تعلم .

انه عمل ادبي يستند الى التاريخ . فهل يسيء لبطل القصة في شيء ، ان يتأثر بزميلة له في الجامعة ؟ .

لماذا يصر البعض على تجريد ابطالنا من حقيقتهم الانسانية ، ومتى كان الحب ضد القضية . صدقني ، ان الابطال الحقيقيين ، هم العشاق الحقيقيون ) .

ومرت سنوات الدراسة ، وهو مثابر على تفوقه ، في كل المراحل .

وفي السنة النهائية . وفي حفل توزيع الشهادات ، تقدم من المنبر والقى كلمة حماسية ، ندد فيها بالاستعمار ، ودعا للثورة عليه . وضرورة التحرر الوطني من ربقته . فما كان من الجامعة الا ان قررت حرمانه من شهادة الماجستير .

وبكل بساطة ، اعاد الشهادة الى الجامعة بعد تسلمها ، معتبرا ان حملها لا يشرفه اطلاقا . وانه يكفيهما حصله من علم ومعرفة ، وهو ما تحتاج اليه بلاده وقضيته .

الا ان قصته مع الجامعة ، بدأت تتضاعف ، اذ تحرك الطلبة في عملية احتجاج واسعة على هذا الاسلوب التعسفي ، ووصل الخبر الى الصحافة ، والمجتمع . فضغط الانكليز على حكومة اسماعيل صدقي العميلة ، للتخلص من عبدالقادر فاتخذت قرارا بطرده خارج الديار المصرية . وسيق مخفورا الى محطة القطار في باب الحديد .

( الطريف ان غالبية المدن العربية الكبيرة يوجد فيها ما يسمى بالباب الحديد . باب الحديد هذا حى قديم معروف في مدينة حلب مثلا ) .

وفي المحطة ، كان هناك جمع غفير من رفاقه ومحبيه ، فتحول وداعه الى تظاهرة وطنية رائعة . هتف فيها الطلبة والشباب الوطني ضد الاستعمار وحكومة صدقي ، وفرقتها قوة من البوليس بالقوة .

لقد وصلت اخبار ما حصل لعبدالقادر في مصر الى فلسطين قبل وصوله .

وفي الوقت الذي كان فيه الوالد يتغنى بتلك الأخبار ، معتزا بتصرف ابنه ، مؤكدا لأضيافه ان « الابن سر ابيه » . دخل عليه الابن مسلما بعد غياب ، فابدل من لهجته ، واصطنع الجد وبادره قائلا :

ـ هل صحيح انك عدت دون شهادة ؟ .

اما هو ، فكان يعرف حقيقة مشاعر ابيه ، انه واحد من ذلك الجيل الطيب ، القوي والرائع ، الذي يصر على معاملة الابناء بشيء من القسوة التي لا مبرر لها في بعض الاحيان ، نتيجة لقناعات متوارثة ، بان ذلك ، يشد في عضدهم ، ويعلمهم الرجولة ويسلحهم بالقدرة على مواصلة مصاعب الحياة مستقبلا . فاجابه بما يرضي تلك النوازع والميول لديه :

ـ لقد ربيتني يا أبي على ان أأبى المذلة ، وارفض الضيم . ولقد حاول المستعمرون ، عبر اجهزة جامعتهم ، ان يسيئوا الي والى اخوانى . فأبيت عليهم ذلك . واعدت اليهم شهادتهم ، حين ارادوها منّة يتفضلون بها علي .

وقدم الى ابيه مجموعة من الاوراق :

ـ هي ذي سجلات علاماتي خلال سنوات دراستي الاربع . وسترى فيها اننى تجاوزت كل مراحل الدراسة بتفوق . افيهم بعد هذا ، ان احضرت « ورقتهم » معي ام اعدتها اليهم ؟

لقد حصلت من العلم ما يكفي لخدمة وطني وشعبي . وهذا ما ارسلتني في طلبه . الا يكفي ذلك ؟

ابتسم الوالد بقدر ، ثم قال :

ـ باركالله فيك يا بني . هكذا ربيتك وهكذا اريد لك ان تكون .

لقد وصلتني اخبارك مفصلة ! قبل ان تصل البلاد . وانا فخور بك وبتصرفاتك .

المهم ان تشمر عن ساعد الجد ، وتستعد لمعركتنا الكبيرة معهم هنا .

في ذلك العام ( ١٩٣٣ ) قامت مظاهرات عنيفة في القدس القديمة . قادها جميعا موسى كاظم الحسيني الأب .

وحين تضايقت القدس ، اراد ان يحرك بقية المناطق ، فتقرر ان تبدأ مظاهرات مشابهة في منطقة يافا . على ان تعم بقية البلاد فيما بعد .

في ذلك المساء ، الذي سبق التظاهرات دخل عبدالقادر مضافة ابيه ، فوجده في حوار عنيف مع بعض رفاق جيله من حوله . فقد كانوا يحاولون ثنيه عن الاشتراك في التظاهرات بدعوى تقدمه في السن . وان عليه ان يترك امر قيادتها لابنه ورفاقه من الشباب .

وما ان اطل عليهم ، حتى صاح احدهم ،

ـ لنأخذ رأي الشباب في الامر .

وبدت على الاب حالة من التململ ، فقد كان حتى ذلك الحين ، يحاول ان يتملص من الدخول في حوار مكشوف مع الابن المثقف . رغم ايمانه به وبآرائه ضمنيا . خاصة حين يحدث الامر امام الاخرين .

وقد تحفز سلفا للرد عليه واسكاته . ولكنه فوجيء به يقول :

ـ انا لا ارى رأيكم . فصحيح ان الوالد قد تقدمت به السن ، ولكنه ما يزال يملك همة الشباب . انني اصر على ضرورة مشاركته في تظاهرة الغد ، وكل تظاهرة قادمة .

ان زعامة ابي جاءته عن طريق مشاركته للناس في بلواهم . في كل ما يصيبهم ، وحين يتخلى عن هذا الواجب ، يكون قد فقد كل مبررات زعامته الوطنية .

ان جيلكم لم يفقد سحره بعد على الجماهير . ووجود الوالد على رأس التظاهرة ، سيعطيها قوة ودفعا لايستهان بهما .

ـ بورك فيك يابني . وستكون الى جانبي غدا في يافا . ولا اكتمكم يا اخوان ان ذلك يملأني اعتزازا . فاذا ما حصل الخطر المتوقع ، تكون قد ادينا ضريبة الدم سوية ، دون ان نوفر منها بقية لغد . نكون قد دفعنا رصيدنا كاملا .

وعادت ابتسامة الرضا الى وجه الشيخ المهيب .

كانت المظاهرات عنيفة في اليوم التالي . اعنف مما كان يتوقعه الانكليز . وكان القائد الانكليزي « فرادي » قد هيأ مخططا لاغتيال موسى كاظم الحسيني . والتخلص منه نهائيا .

كان الشيخ كمن يعرف ، بحدسه الذي ، لا يكذب ، انه مقدم على خطر محقق . فودع اهله وجيرته ، دون ان يشعرهم انه مودع لهم ، فقد مر بهم جميعا ، ممازحا ، على غير عادته ، ملاطفا ، بحجة الاطمئنان عليهم قبيل انتقاله الى يافا .

ولقد اصر على ان يكون على رأس المظاهرة ، لكأن شوقا سخيا ، خفي النزوع الى الشهادة ، يدفع به الى ذلك . وكان له ما اراد .

وركز جنود الانكليز على مقدمة المظاهرة . وكان عبدالقادر ، يدافعهم ، بكل فتوته ، عن ابيه .

وحين حصل اشتباك بالايدي والعصي ، بين المتظاهرين وبينهم ، شج رأس موسى كاظم وسالت دماه ، فثارت ثائرة الجموع ، وانقضوا على الجند بالحجارة ، وكل ما وصلت ايديهم اليه .

وفجأة انهمر وابل من الرصاص عليهم . وسقط الشيخ ارضا . لقد جرح برصاصة اصابت فتى كان بقربه ، سارع ليحميه بجسده ، فسقط قتيلا امامه . كما جرح عبدالقادر ، حين القى بنفسه على ابيه ليحميه .

وحملوا القائد الجليل الى دير بين القدس والخليل . قرب قرية العروب ( كانت فيها مياه تشرب منها القدس . وقد انشأ الصهاينة مستعمرة كفارعصيون بجانبها فيما بعد )

لم تكن جراحه خطيرة . ولكن الجسد العتيق لم يستطع المقاومة طويلا . فتوفي بعد قليل متأثرا بجراحه .

كانت آخر كلماته لابنه الذي وقف الى جانب سريره ، وهو يلفظ انفاسه .

« حذار ان تفلّ المصائب من عزيمتك يا بني ، اترك فلسطين امانة في عنقك » .

وفي اليوم التالي ، كان عبدالقادر ، يقف في « الدار الكبيرة » رابط الجأش ساكن القسمات ، يتلقى التعازي من جمهور المعزين .

# ثورة الـ «٣٦»

حين عاد عبدالقادر من مصر ، عرضت عليه سلطات الاحتلال عدة وظائف في الدولة فرفضها جميعا . فقد كان من عادتها ، ان تحاول دائما استقطاب ابناء الاسر الكبيرة والمثقفين منهم ، في عملية احتواء خطيرة ، عن طريق توظيفهم ، واغراقهم بالمال والجاه الزائف ، فتبعدهم عن الاهتمام بالقضايا الوطنية ، ومصالح العامة من الناس . وقد فات تلك السلطات ان صاحبنا من جبلة مختلفة .

وقد ظل حوالي العامين ، يكتب في الصحف ، مهاجما الاستعمار والانكليز وسياسة الارساليات الاجنبية . وقد نشر اكثر تلك المقالات في جريدة « الجامعة الاسلامية » لصاحبها الشيخ سليمان التاجي الفاروقي .

كان من طموحاته ايام الشباب الأول ، ان يتجه الى الكتابة والصحافة خاصة . ولكن ظروف بلاده حالت دون تحقيق حلم الشباب ذاك .

بعد استشهاد والده ، قبل وظيفة قاض في دائرة تسوية الاراضي . لماذا ؟

لقد قبل بها لسببين .

الأول ان تلك الدائرة ، كان منوطا بها ترتيب عمليات مسح اراضي المشاريع ( غير المسجلة او المسماة باملاك الدولة ) وبيعها للمؤسسات الصهيونية ، لتستوعب المزيد من المهاجرين .

وكان يهمه ، كمناضل وطني ، ان يعرف اسرار تلك اللعبة ، وكيف تتم صفقاتها .

اما السبب الثاني ، فلأنها تتيح له فرصة ذهبية للاتصال بالقرى والفلاحين . في مجتمع ما يزال الطابع الغالب عليه هو الطابع الزراعي . وقد رأى بثاقب نظره ، أن اولئك الفلاحين ، هم غذاء الثورة الحقيقي ، اذا ما احسن تنظيمهم وتوجيههم .

وبالفعل ، فقد شكل عدة كوادر خلال العامين اللذين امضاهما في تلك الوظيفة ( ٣٤ ـ ٣٥ ) . الا انه ما لبث ان استقال منها ، مع بداية الاضراب الكبير ، الذي استمر ستة اشهر في فلسطين ، وكان مقدمة للثورة . وانصرف نهائيا الى العمل على اشعال نار الثورة .

اعلن ذلك الاضراب في ١٩ نيسان من العام ٩٣٦ . وقد حفلت تلك الاشهر الستة بشتى انواع المقاومة السلبية . كالغارات الخاطفة على دوريات الانكليز المنعزلة ، أو رش المسامير في طريق سيارات الجيش الانكليزى ، وتخريب مرافقه الضرورية له .

« في تلك الايام ، كثيرا ما كان ينام في بيتي » فقد كان اهلي في القرية ( بيت ريما ) وكان بيته مراقبا من قبل سلطات الاجنبي

وفي تلك الليالي ، كان الحديث يطول في سهراتنا ، حول تنظيم الثورة ، وشراء الاسلحة .

كثيرة هي الاجتماعات التي كان يعقدها في بيتي . ولطالما جاء اليه الفلاحون الفقراء ، من اقاصى البلاد ، ليعاهدوه على الثورة وكأن شيئا خفيا كان يشده الى الفلاحين ، او يشدهم اليه .

كان حبه الكبير للوطن وللفلاحين . يثق بهم ثقة عمياء ، ويعتقد انهم لحمة الثورة وسداها . ومن دونهم لا يمكن لها ان تقوم » .

# الأجتماع التاريخي

« كنا اثني عشر شابا ، جمعنا عشاء سري . في بيت احد الرفاق واسمه مصطفى الدزدار . وكان بيته في القدس القديمة ـ حـــي المصراره .

وقد تم في ذلك الاجتماع ، الاتفاق على الخروج الى الجبال بعد ثلاثة أيـــام .

الا ان الخبر وصل الى البوليس .

فقد التقيت في اليوم التالي بصديق لي يعمل في الاجهزة ، فقال :

ـ حـــذر جماعتك . لقد وصل خبر اجتماعكم بالتفصيل ، وهم يعرفون كل ما دار فيه .

وحين ذهبت الى عبدالقادر لاخبره ، تجهم وأطال الاطراق ، ثم رفع الي وجها كسته المهابة والحزن وقال :

ـ ترى ، هل كان بيننا « يوضاص » آخر ؟

في اليوم التالي ، اصر على الخروج لوحده . ليتصل بكوادره على الا يرافقه احد ممن حضروا الاجتماع .

رافقته حتى قرية « دير الشيخ » غرب جنوب القدس ، التي يمر منها القطار وفيها محطة .

كان الوقت قبيل الغروب . وعتمة المساء ترخي سدولها على المكـــان .

وكان هناك من ينتظره . فلاح جافي القسمات ، كثير الصمت . تطلع الي بريبة ، فابتسم له وقال :

ـ لا تخش شيئا . انه احد رفاقنا .

فابتسم الي بمودة ولكنه لم ينطق باي حرف .

ودعته راجعا ، وسار الهوينا هو وذلك الفلاح . ومـــا ان تجاوزتهما قليلا ، حتى سمعتهما يتحدثان باسهاب ، وهما يبتعدان . فتملكني العجب . لقد كان ذلك الرفيق الفلاح ، يبدو كالأبكم قبـــل قليل . وما ان ابتعدت ، حتى حلت عقدة لسانه ، فاسهب فـــي الحديث ؟

كم كانت شخصيته محببة وغامضة ، فقد أصر على الصمت ، برغم التعريف الذي قدمه له .

مازلت احس بكثير من الاسف حتى الآن ، لانني لم اتعرف اليه جيـــدا . لانني لم اسأله عنه فيما بعد . بعد يومين ، مر القطار بمحطة « دير الشيخ » محملا بالذخائر والجنود . وسمعنا بنسفه .

نسف الانكليز بالمقابل . بضعة بيوت في القرية ، كنوع مـــن العقوبة الجماعية . وهو الاسلوب الذي اتبعته اسرائيل فيما بعد » .

# سعيد العاص

« كان سعيد العاص ، النموذج الفذ للمقاتل عند عبدالقادر . وكان لا ينقطع ، ونحن في المعتقل عن تمجيده وتطييب ذكراه »(١)

في بدايات ثورة الـ ٣٦ اكتشف قادتها ، مدى حاجتهم الى عسكري مدرب تدريبا رفيعا ، يقوم بقيادة المهمات العسكرية .

وبدأ البحث والتقصي ، عن عنصر تنطبق عليه المواصفات المطلوبة . من وطنية صادقة ، وحس قومي صحيح . الى حسن الدربة والتمرس بمختلف انواع المعارك النظامية وغير النظامية .

وقد اهتدت قيادة الثورة ، بعد رأي ، الى شخصية تجمع كل هذه الصفات والمناقب .

انه الثائر العربي السوري سعيد العاص . الذي التجأ الى الاردن ، عقب فشل الثورة السورية ، في منطقة حماه خاصة ، وبعد ان قاتل الفرنسيين طويلا فيها . وفي حيه الثائر المعروف باسم « الحاضر » . حتى ايامنا هذه .

كان العاص يحمل رتبة قائمقام أركان حرب . وقد خاض حرب العصابات طويلا ضد الفرنسيين ، في مختلف المناطق السورية .

---

(١) صديق شنشل احد رفاقه في معتقل العمارة بالعراق .

كما كان يعاني آنئذ ، من مضايقات عدة في الاردن ، بسبب الانكليز ونظامهم العميل هناك . وقد وضع في ظروف لا انسانية سيئة جدا . وكان يعاني من الفاقة والضنك الشيء الكثير .

لقد مارسوا عليه كل انواع التضييق المادي ، لدرجة التجويع ، علهم يقنعونه بالتعاون معهم . ولكنه أبى ان يتخلى عن مبادئه وثوريته .

« تعرفت اليه ، في مدرسة الايتام الاسلامية في القدس . وكانت تابعة للاوقاف الاسلامية . ويديرها المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى . الذي يرأسه المفتي الشيخ امين . وقد جاء يطبع مذكراته عن الثورة السورية في المطبعة التابعة لها .

ونظرا لسوء وضعه المادي . تبرعت بمساعدته في تصحيح « بروقات » تلك المذكرات ، فقد كنت استاذا في تلك المدرسة ولغتي العربية جيدة .

يبدو انه كان يعمل على طبع تلك المذكرات لحاجة مادية . ان لم يكن مقتنعا ان دوره انتهى . وطبع مذكرات السياسي أو الثائر ، يعني انه بلغ غاية الشوط .

كان يفكر بأرسال نسخ منها الى بعض اصدقائه القدامى في سورية والبلاد العربية ، عله يجمع بها ما يقيم أوده هو وبعض رفاقه من منفيي الثورة السورية في الاردن .

كان امتنانه غير محدود لما قدمته له من مساعدة . وهكذا توطدت بيننا اواصر صداقة حميمة . قوامها لقاء فكري واحساس مشترك بضرورة انقاذ الوطن العربي قاطبة من المستعمرين ، بكافة اشكالهم ونماذجهم . وان ذلك لن يتم الا عن طريق الثورة الدائمة .

لهذا حين اتفقت الآراء على ضرورة استدعائه ، كنت الرسول الذي ذهب لاحضاره » .

حين اجتمع سعيد العاص ( ابو سعاد ) بعبدالقادر ، وطال الحوار بينهما . اتفقا على كل شيء . لكأن الواحد منهما يعرف الآخر منذ دهر .

ـ يا اخي ابا سعاد . نحن بحاجة لخبرتك وصادق وطنيتك . وقد اتفق الرأي على ان تكون قائدا عاما للثورة ، وان اكون معاونا لـــك .

ـ ولكن ، يا اخي ، الا يشكل هذا بعض الاحراج لي ولكـم . فانا من شمالي سورية وانتم من جنوبها .

ـ دعك من هذا يا اخي . مثل هذا التفكير غير وارد أصلا بين جماعتنـــا .

ـ يشهد الله انني ما فكرت بذلك لحظة واحدة . ولو قيل لي ان ثورة قامت الساعة ، في أقاصي الوطن العربي ، لحملت روحي على كفي ، وذهبت لانخرط في صفوفها مقاتلا عاديا ، ولكن موضوع القيادة قد يخلق لكم بعض الحساسيات .

ـ أبدا . انت ضابط كبير ، وثائر معروف ونحن يشرفنا ان نخوض معركتنا بقيادتك ، فما رأيك ؟ .

ـ وهل تبقى لي مجال لابداء الرأي .

انا رهن اشارتكم . وانه لشرف عظيم لي ، ان تولوني ثقتكم ، وان اقدم حياتي في سبيل انقاذ فلسطين ومقدساتها من رجســـس الاستعمار . الذي هو واحد ، عندنا وعندكم ، وان اختلفت الملــل والنحل .

مبتســـما :

ثم ، صدقني يا اخي ، انني تعبت من المنفى . والثائر ، أشـــد ما يؤذيه ، ان يقبع في ظلام المنفى ، يتآكله الصـــدأ والصـــمت والانتظار .

لشد ما كنت اخشى ، ان اموت في صقيع المنفى ، بعيدا عـــن ساحات القتال ، وها انذا ، وقد انعم الله علي بالفرصة الذهبيـــة التي كنت انتظر ، وارجو ان يمن علي بشرف الشهادة . فـــان لم يكن لي شرف تخضيب تربة شمال سورية بدمائي ، فلأسق جنوبها ، مؤكدا بذلك ، للأجيال القادمة ، على وحدة التراب العربي .

وشد كل منهما على يد الآخر . في عهد وثيق على الوفاء للوطن والثورة ، وانطلقا معا ليتابعا معركة الحرية .

« ارسلني سعيد الى الاردن ثانية ، برسالة منه الى جماعة من آل الشالاتي ، السوريي الاصل ، ليسلموني بعض الاسلحة التي احضرها معه من سورية . ووضعها أمانة في حوزتهم .

ولقد استلمت السلاح منهم ، ووضعته في سيارة مموهة ، واوصلتها الى جسر اللّنبي .

وعند قصر الشونة ، الذي بناه الملك عبدالله ( كان يومها أميرا للانكليز على الاردن ) قابلني احد المجاهدين واسمه فايز وهو ابن عم رفيقنا عبدالرحمن علي الملقب بشحذه احد الاثني عشر الذين ضمهم اجتماع بيت الدزدار .

كان عليّ ان اسلمه الاسلحة وهو يتكفل بايصالها » .

لم يطل مكث سعيد مع جماعة ثورة الـ ٣٦ . فلقد سقط شهيدا في معركة « الخضر » بعد حوالي عشرين يوما من التحاقه بها .

ولقد حصلت المعركة في شعب ( واد ) بين قرية الخضر وقرية حسان ، ووري جدثه هناك . غربي بيت لحم ، على يمين القدس ، في رأس التل ، الواقعة على طريق الخليل ـ بيت لحم .

وقد جرح عبدالقادر في تلك المعركة ، اصيب سعيد في بطنه اصابة قاتلة ، وقد فارقته الحياة وهو بين يد يرفيقه عبدالقادر .

كان يتوجع من جراحه ، ولكنه يكز على اسنانه ويأبى ان يقول : « آخ » والتفت الى عبدالقادر ، في صحوة ما قبل الموت ، وقد اصبحت عيناه كبركتي دم ، وحين فتح فاه ليحكيه تدفق الدم منه ، واختلط مع الكلمات .

ـ اي اخي ، كان بودي لو اظل معكم ، اتابع معركة الشرف والتحرير . ولكنها ارادة الله .

لكم انا سعيد اللحظة ، وابتسم ، اسما ومسمى ، فقد استجيب طلبي ، ولم امت على فراشي في صقيع المنفى . ها انذا اموت كما يموت الثوار الحقيقيون وحسبي هذا ، ثمنا لكل العذابات التي عانيت منها .

ـ بعد طول عمر يا ابا سعاد ، بعد طول عمر .

واضطربت الكلمات على شفاه عبدالقادر . لانه كان يعرف انها النهاية ـ البداية .

ـ ينفص علي سعادتي اللحظة ، خــوفي علـــى القسطـــل يا عبدالقادر . هل اوصيك بالقسطل . انها مفتاح القدس .

ـ لا تخف عليها يا أبا سعاد . انها أمانة في عنقي . انها اغلى الامانات ، وستظل دائما في سويداء القلب والعين اطمئن . حـــين تحين الساعة ، ساحميها بدمي .

وانتفض سعيد .

ـ اوصيك بســعا ....

وارتمى بين يدي رفيقه قبل ان يتم اسم ابنته التي امسـت يتيمة الابوين .

شد عليه عبدالقادر ، عانقه ، مغالبا الدمع ، واختلط دم الجريح بدم الشهيد . وانثالت قطراته لتخضب التراب العربي الفلسطيني واسرع بعض الرفــاق ، يوارون جدث ســعيد مكان اســتشهاده . تحت ظلال الزيتونه التي كان يتكيء اليها ، وهو يطلق النار علـى الانكليز من بندقيته ، التي ظل يطلق منها ، حتى نفذت ذخيرتـه واصيب اصابته القاتلة .

ما ان انتهوا مما هم فيه ، حتى احسوا بجنود الانكليز يطبقون عليهم وقد نفذت ذخيرتهم هم ايضا . وتمكنوا من اسر عبـدالقادر ونقلوه الى مستشفى المسكوبية . كان ذلك في السادس من تشرين الاول العام ٣٦ .

« بعد أيام زرته في المستشفى . كان هناك موظف استخبارات يرتدي لبوس المرضين ، ويجلس بيننا . قال :

ـ يا اخ صالح ، قررت ان « ازرع الفل » ففهمت انه ينوي الهرب وخشيت ان ينتبه الموظف فقلت :

ـ واين ، على هذه الشرفة ؟

فابتسم وقد فهم ما ارمي اليه . وهز رأسه مؤيدا .

وفعلا استطاع الهرب من المستشفى في اليوم التالي . وظل متواريا عن الانظار فترة من الزمن ، قبل ان يتمكن من مغادرة البلاد الى سورية فالعراق . حيث اكمل علاجه هناك وعاد من ثمّ الى سورية .

قبل ان يغادر فلسطين ، ارسلني لاحضار ابنة رفيقنا وقائدنا الشهيد سعيد العاص من عمان ليقوم بواجب تربيتها ، في تلك الايام ، كثر اسم سعاد في ديارنا . فقد اخذ رفاق الجهاد يسمون بناتهم باسمها ، تكريما لذكرى العاص .

من غريب الصدف ، ان جدتها ، وهي شركسية ، توفيت اثناء ولادة امها . وان والدتها هي الاخرى ، توفيت ساعة ولادتها .

وقد عاشت سعاد في « الدار الكبيرة » بكنف عائلة الحسيني حتى كبرت وتزوجت كما أظن .

( لقد اصبحت تلك الدار الآن مدرسة تعرف باسم « دار الطفل العربي » . اما بيت السيدة ام موسى ، زوجة عبدالقادر ، فقد استولى عليه الصهاينة في عام ٦٧ وحولوه الى ناد )

— ولكن سعاد ، هي آخر ذرية سعيد العاص فما هي اخبارها . واين تعيش الآن ؟

— وا أسفاه . ففي زحمة التشرد والغربة واللجوء ، ضاعت علي آثارها .

فعلا ، هي البقية الباقية ، من ذلك الرجل العظيم .

لعلها تعيش الآن في حي الحاضر بمدينة حماه ، عند اهل ابيها . لعلها لاجئة في احد المخيمات ، لعلها ... يؤسفني يا صديقي الا أعرف عنها شيئا البتة » .

# الخواجة أميل الخوري

« حين عاد الى سورية ، وصلتني منه رسالة سرية ، فذهبت الى بيارة ( هريبا ) قرب غزة . حيث ترك زوجته وهي عروس . وقد ولدت له بنتا وهو بعيد عنها . فاصطحبتها معي الى دمشق:

وقد عاش هناك ، متنقلا تحت اسم مستعار هو الخواجة اميل الخوري .

كان يسكن في بيت متواضع بمنطقة بستان الرئيس ـ الجسر الابيض . بعدان قضى فترة من الزمن ، في فندق « سافو » في المرجه » .

الحاج ابو احمد ، شيخ جليل ، يجلس دائما في الصالون العتيق ، في الفندق الذي أصبح عتيقا . بعد ان ارتفعت الفنادق الحديثة الشاهقة البنيان .

يطيب له ان يسامر قدامى الزبائن ، الشيوخ منهم على وجه التخصيص ، وهو يصر على ارتشاف القهوة المرة ، والجلوس الى متكأ قديم الطراز ، كان يجلس اليه ابوه من قبله .

خشبه مصدف ، مع عروق من فضة تحيط بالاصداف وتشدها . شغل شامي عتيق ، صنعته يد صناع ، ليس شغل « مكائن » هذه الايام .

وسائد وحشايا ، مطرزة بغريب الصور والخيالات . وهو ما يألو يدق على خشب « الدشك » كلما سأله سائل عنه :

ــ ايه ، الله يرحم ايام زمان . كان كل شيء نظيفا . واليوم اصبح كله شغل « مكنات » .

ــ صباح الخير عم ابو احمد .

ــ صباح الخير يا استاذ . اهلا وسهلا .

ويمد يده المعروفة ، الى فناجين الصيني القديمة . ويصب لي « شفة » قهوة « كالدم الرعاف » فأرتشفها على مهل . وقد اعادتني الى ايام المضافة العتيقة .الموصدة على الصمت والاحزان .

ــ لكأنك ابن عشائر يا استاذ .

« من وين الاخ » ؟

ــ وما ذا ادراك يا عماه ؟ .

ــ طريقتك في ترشف القهوة المرة .

وابتسمت له ، مؤكدا بصمت ما ذهب اليه ، لم أشأ ان اكشف ما يوجع الاعماق .

عدت سنين طويلة الى الوراء . ومرت بخاطري الدلة الكبيرة « القمقوم » التي نسج العنكبوت لنفسه فيها خياما . والمهباج الضخم ، المصنوع من خشب « السويد » المأخوذ من شجرة هرمة اقتطعت من جبل « البلعاس » ، والذي صمت ، صمت الازل ، لسنين طويلة خلت .

ــ لكنني جئت لغير حديث القهوة يا حاج .

ــ خير ان شاء الله . لعلي استطيع ان ابيض وجهي معك ؟

ــ وجهك ابيض دائما . ولهذا قصدتك .

ــ تفضل ، تفضل ، افصح عن حاجتك يا بني . وهي مقضية باذنالله .

ـ اريدك ان تعود معي الى دفاترك العتيقة . الى العام ١٩٣٧ على وجه التقريب .

ـ عجيب امرك يا استاذ . هذه الدفاتر أكلها البلى . وقـــد مـــر عليها قرابة اربعين عاما حتى الآن ، واحتفظ بها أو ببعضها ، فقط للذكرى ، وهي بعيدة عن متناول يدي الآن ، فاي غرض لـــك فيهـــا . هل هناك حقوق على المرحوم لم أؤدها الى أصحابها ؟ !

وعهدي انني وفيت كل ما بذمته .

ـ ما جئت مطالبا بحقوق ، لا سمح الله ، وانما لاسألك عـــن نزيل قديم في تلك الايام الخوالي . انه الخواجة اميل الخوري .

ويتمهل وجه الشيخ يشرق بابتسامة عريضة . فالمرحـــوم يمس تراث الفندق وتاريخه العريق الذي يعتز به .

ويغيب في سرحات طوال .

ـ الله الله يا دنيا . رحم الله البطل .

تقصد فارس القسطل عبدالقادر الحسيني ؟ .

ـ هو كذلك . ولكن ما هي ذكرياتك عنه وعن تلك الحقبة مـــن الزمن

ـ في هذا الموضوع ، لسنا بحاجة الى الدفاتر العتيقة . فانا اذكر كل شيء عنه تقريبا .

كنت في حوالي الثلاثين من العمر . متزوجا ولي اولاد .

ولكن عوائد تلك الايام ، كانت تقضي ان يظل كل شيء في يد الوالد لما هو على قيد الحياة .

كان يجلس على هذا « الدشك » ، ويدق بيده عليه .

ولطالما رأيتهما ، هو ووالدي ، يطيلان الجلوس والسهر .

رحمه الله . كان يعشق القهوة المرة . وكان والدي يقول دائما : « غريب امر هذا الخواجة . لكأنه ابن عشائر » .

وكان هو حين يشير ابي الى هذا الجانب ، يغرق في الضحك ، قائلا : « لا تنس يا عم ، ان الغساسنة هم مسيحيو الجنوب وهم اعرق عروبة منكم . ألم ينصروا الاسلام أيام الفتح . فخذلوا ابناء دينهم ووقفوا مع ابناء عمومتهم ، في القادسية والشام ؟ » .

لم يكن الصالون الحديث قد افتتح بعد . ويتلفت عبر الباب الزجاجي الفاصل بين القاعتين . باحتقار وترفع ، ثم يكمل : حين استأذن في الانتقال من الفندق . لان العائلة قد حضرت لتسكن معه في دمشق . ولم يكن مستحسنا تلك الايام ان تنزل « العوائل » في الفنادق . ودعه والدي بحفاوة واسف ، بعد ان اصر عليه ، ان يزوره دائما . ليجلسا الى قهوتهما كالمعتاد .

كان بذمته بقية حساب . اراد الاعتذار على عدم تمكنه من دفعها ذلك الحين . واعدا بالعودة من اجل تسديدها . فاستشاط والدي غضبا .

— لا ياخواجة اميل . الناس اعتاب ووجوه . وانا — يشهد الله —

ليس لي بذمتك شيء ، مسامح من اللحظة ، الدنيا عسرويسر يا رجل . فان وجدت نفسك في يسار واحببت الدفع ، فاهلا وسهلا . والا فانا املك من دينك . خذ وقتك يا خواجة ، واذا احتجت لشيء . أنت والعائلة . فتذكر ان لك اخوة هنا .

وان حسابك مفتوح في فندق « سانوا » .

انما لن اسامحك اطلاقا ، اذا انقطعت عن مجلسنا .

كنت استمع الى الجواب الدائر بينهما من بعيد وابتسم .

هو فعلا لم ينقطع عن زيارتنا . وحين اراد العودة الى فلسطين ، جاء ليدفع حسابه . معتذرا بالظروف السياسية التي اجبرته على انتحال هوية غير هويته . معلنا اسمه الحقيقي ، راجيا والدي ان يكتم الامر الى حين الى ما بعد مغادرته البلاد .

حين عرف ابي حقيقة الامر . رفض قبول الدين .

— اعتبره تبرعا من عمله للثورة .

وعانقه طويلا . والدموع في عينيه .

ـ كان والدي ـ رحمه الله ـ نموذجا للانسان الشامي العتيق .

ظل يتسقط اخباره باستمرار واخبار الثورة ، وكانت فرحته لا توصف ، كلما جاءه احد رفاق عبدالقادر ، ليبيت ليلة او ليلتين ، وغالبا ما كان يرفض اي اجر منهم .

وقد علمت فيما بعد ، وانا اراجع قيوده الخاصة . انه استمر على ارسال تبرع ثابت ومنتظم للثورة .

في السنة التي استشهد فيها عبدالقادر . وافت المنية ابي . وقد حزن طويلا على صديقه القديم . وظل يذكره حتى آخر أيامه . بأسف ومرارة واعتزاز . لطالما سمعته يحدث أضيافه ، كلما اسعفته صحته المنهارة على الجلوس هنا ، « على هذا المقعد ، كان يجلس البطل وبهذا الفنجان كان يشرب قهوته . وو .. » .

ويغرق في الصمت والحزن والتفكر .

ذكرياتي عنه ، يا استاذ ، لا تعدو ما كنت اراه من هناك ، من خلف مكتب الاستقبال . أو ما سمعته من المرحوم فيما بعد . فلم يكن من اللياقة بمكان ، ان اشاركهما مجلسهما .

رحم الله أيام زمان . فقد كان الابناء يحترمون الاباء ويجلونهم . ولا يسمحون لانفسهم بالجلوس في حضرتهم .

وودعت الحاج أبا احمد ، وهو يستنزل الرحمات على ذكرى البطل . ويترحم على ايام زمان . التي كان كل شيء فيها ، صحيحا ونظيفا ...

عمل عبدالقادر اثناء اقامته في دمشق ، ليل نهار ، للتحضير لانتفاضة جديدة .

كان يشتري ما يتيسر من الاسلحة والذخائر ، يوفر ثمنها من تبرعات الفلسطينيين والاخوة العرب .

وقد ساعدته في ذلك ، خير مساعدة ، جماعة عصبة العمل القومي . وهي جمعية تشكلت في مدينة حمص من سورية الوسطى . اثر نكبة لواء الاسكندرون . وضمت في صفوفها خيرة المثقفين السوريين والعرب .

الا ان طابع البورجوازيات الوطنية ، المسيطر عليها . جعل عقدها ينفرط بعد سنوات قلائل من تشكلها .

فانفض عنها الثوريون الشباب وانضمت غالبيتهم الى تيار البعث الصاعد الفتي .

التف بعضهم في البداية حول الاستاذ الارسوزي . ولكنهم ما لبثوا ان التقوا بالاستاذ عفلق . وبعد ان يئسوا من قدرة الارسوزي على الاستمرار في العمل السياسي المنظم .

اما المعتدلون ، فقد تشكلت منهم « الكتلة الوطنية » التي حكمت سورية فيما بعد . وقامت بنضالات طيبة في البداية ضد المستعمر ، ولكنها حين حصل الاستقلال ، تضاربت مصالحها المادية مع رغبات الجماهير ، فانكفأت الى مواقع رجعية ، وقد انقسمت في حينه الى حزبين : الوطني والشعب . وكلاهما ضم اليه كبار الاغنياء والاقطاعيين ، حتى طغت عليهما موجة البعث والاتجاه الوحدوي الاشتراكي .

كان ابرز الذين ساعدوا الحسيني في منطقة دمشق ، المحاميان عبدالكريم العائدي وابو الهدى اليافي .

« كان يحب منطقة دمر والربوة بشكل خاص . ويكثر من التردد عليها . والتنزه في مرابعها . ولطالما قال :

امنيتي الاولى ايها الاخوان ، هي انقاذ فلسطين . فان وفقنا الى ذلك ، فاشهدكم على انني سأسكن دمشق ، لاقضي فيها بقية أيامي ، فانا لا مطمع لي في جاه او مال او منصب . والله على ما اقول شهيد . »

في اواخر العام ٣٦ وبدايات الـ ٣٧ ، قتل حاكم لواء الجليل « المستر اندروز » الذي ارسله الانكليز ، منذ تلك الايام ، ليمهد

لمشروع التقسيم . الذي نفذوه ، مع بقية الدول الاستعمارية بعد عشر سنوات .

كان القسامون قد قرروا قتله ، ووضعوا اسمه على رأس قائمة الاغتيالات التي قرروها من قبل ان يستشهد القسام ، قبل عام ونيف ، ونفذوها بحق كل خائن وعميل . وكل من الحق الاذى بالقضية الفلسطينية ووصلت اليه ايديهم .

وهكذا فقد قتله في مكتبه بالناصرة الشيخ احمد توبه .

وقد ادت الاعمال الانتقامية التي قام بها الانكليز اثر مقتله ، الى قيام انتفاضة وطنية عارمة في كل البلاد . وقد اخذت اخبار تلك الانتفاضة ، تصل الى عبدالقادر ورفاقه في دمشق . وقد برز من قادتها يومذاك ، عارف عبدالرزاق وعبدالرحيم حاج محمد ، وحسن سلامة ومحمد صالح وغيرهم .

وكانت اكبر العمليات التي حصلت تلك الفترة ، نسف محطة قطارات « رأس العين » التي نفذها الشيخ حسن سلامة مع جماعة من المجاهدين .

وقد استشهد في هذه العملية البطولية ، محمد ياسين ، الذي قام بعملية التفجير . كما اصيب الشيخ حسن بجروح .

ـ يا اخوان ، لم يعد من المعقول اطلاقا ، بقاؤنا بعيدا عن الوطن وهاهم اخوة ورفاق لنا ، يخوضون اشرس المعارك ضد المستعمر المحتل .

وارى ان علينا عزم امرنا منذ الساعة ، على العودة الى « فلسطين » .

كنا مجموعة من رفاقه القدامى ، الذين يعيشون في المنفى معه . فأقره الحاضرون على ما يقول . وابتدأت رحلة العودة ، وما ان دخل البلاد حتى جمع كوادره القديمة . وابتدأ يخوض اعنف المعارك ضد جنود الاحتلال . والصهاينة الذين يؤيدونهم .

وكان اهم انجاز قام به . ان استطاع جمع شمل قادة الثورة وفصائلها المتفرقة . وكان الاجتماع الكبير في « دير غسانه » ثم في « بيت ريحا » . وتم على اثر ذلك توحيد القيادة .

وقد فاجأت طائرات الانكليز بعض المجاهدين العائدين من تلك الاجتماعات بقيادة المجاهد محمد صالح . في واد على طريق رام‌الله ـ القدس . فاستشهد هو وبعض رفاقه .

كما استشهد في هذه الفترة ، بعض القسامين ، كيوسف ابو درة ، وابو سليمان مردادي وغيرهما .

عاد عبدالقادر اذن ، واستطاع ان يقود عدة معارك ضد قوات الاحتلال . كانت اشهرها معركة « الواد » التي استمرت عدة أيام ، ومعارك القدس التي اضطر بعدها للجوء الى جبال « عين كارم » .

في هذه الفترة ، وقعت ايضا معركة « بني نعيم » . شرقي الخليل . التي جرح فيها جرحا بليغا . اذ اخترقت رصاصة رئته ونفذت من ظهره . كما جرح فيها صبحي ابو غربية ، الذي التحق بعبدالقادر وهو في السابعة عشرة من عمره ، وظل الى جانبه حتى آخر لحظة من حياته .

ايضا استشهد فيها المهندس علي الحسيني ، ابن عمه ، الذي كان قد تخرج حديثا من الجامعة الامريكية في بيروت . وجاء ليلتحق بصفوف الثورة .

اثر هذه المعركة الضارية ، وبعد ان جرح عبدالقادر . نقله رفاقه تحت اسم مستعار الى المستشفى الانكليزي في الخليل . ولم يمكث سوى عدة ايام ، غادر البلاد بعدها الى الاردن فسوريا فالعراق .

( كان العم صالح وهو يحدثني ، يلقي بساقه المعطوبة على كرسي صغير امامه . كأنها ليست منه ، شيء مهمل لاعلاقة له به . فهي يابسه لا يستطيع ثنيها .

وكان يتحاشى ان يشير بيده الوحيدة الاصبع .

ولكنه حين يزداد حماسة في حديثه ، وانا اسجل له ذكرياته من رفيقه عبدالقادر والقضية الفلسطينية ، فيما قبل الخمسينات ، كان ينسى نفسه ، فيرفعها في وجهي ، كالمهدد المتوعد . فيغمرني شعور بالارتياح . لكأن تلك الاصبع ، الوحيدة الباقية ، هي الشاهد الاخير ، على خيانة كل الخائنين . بقيت لتشهد على كل الذين تاجروا بالقضية الفلسطينية ، قديما وحديثا ، وباعوها « بثلاثين درهم » .

كان في وجه العم صالح الريحاوي(١) ، رغم ان عمره يزيد على الستين ، او هو اقترب من السبعين بلغها او كاد ـ يستحيل عليك تحديد عمره ـ طفولة حيي ، وحيوية قد يفتقر اليها شباب هذه الايام .

وكانت ذكريات تلك الحقبة الطويلة والدامية ، على امتداد اربعة عقود ونيف من تاريخ فلسطين ، تشعل حميا الشباب في محياه . لكأنك أوقدت نارا مشتعلة ، في موقد مهجور .. »

ـ عذرا يا عم صالح ، أرى ان ساقك لا تنطوي . وانت منذ ساعات تمدها وتضعها على هذا الكرسي .

ـ لقد جرحت في مستعمرة « النبي يعقوب » بين القدس ورام‌الله . وتعطلت رجلي . كنت احمل سيارة بالقنابل والذخيرة ، واكتشفت ان اليهود قد قطعوا الطريق بالحجارة .

كان معي عبدالله الريماوي ومجاهد آخر من آل ابو غربية .

وعندما نزلنا لازالتها . انهمر علينا الرصاص . فجرحت اثناء الاشتباك ، بعد انسحاب المهاجمين ، لقلت الى المستشفى الفرنساوي . وقد اضطر رفاقي ان يضعوا حرسا على باب غرفتي . فقد كان من عادة الصهاينة ان يفاجئوا المستشفيات ويغتالوا الجرحى من المجاهدين .

---

(١) رواية القصة وعرفني عليه الاخ غازي ابن المرحوم عبدالقادر . وهو ضابط في احدى المنظمات الفدائية حاليا . يسير على خطى ابيه .

( عملت الشيء ذاته ، القوى الانعزالية في لبنان ايام الحرب الاهلية الاخيرة فيه ) .

كان ذلك في ٣١ـ١ـ٤٨ . وخرجت من المستشفى بساق لا تنثني .

ـ واصابع يدك . اين نسيتها . فهي باصبع واحدة كما ارى
وابتسم العم صالح :

ـ « بسيطة » . انفجرت بيدي قنبلة يدوية ، فأخذت معها اربعة وابقت على هذا الاصبع اليتيم .

كان يحكي ببساطة ، وكأنه يحدثني ، عن وجبة الطعام التي تناولها البارحة ، فاورثته بعض عسر الهضم .

# في العـــراق

حين انتقل الى العراق ، في اواخر العام ٣٧ . كان يحــــس بمسيس حاجته الى الخبرات العسكرية. خاصة بعد ان خسر صديقه البطل سعيد العاص . وقد كشفت له معارك العام ٣٧ ذلك ، فقرر ان يغتنم فرصة وجوده في العراق لاكتساب هذه الخبرات .

كان الحكم ذا ملامــح وطنية . وكان هناك مجموعــات مــن الضباط الاحرار ، خاصة صلاح الدين الصباغ ورفاقه . فاتصــل بهم . وقد استطاع من خلالهم القيام بعدة دورات هو ورفاقه مــن الفلسطينيين الموجودين في القطر العراقي . كما استطاع فيما بعــد ان ينتسب الى الكلية العسكرية ، ويتخرج منها برتبة ضابط مؤقت ( احتياط ) وان يظل في الكلية مدرسا لمادتي الرياضيات والعلــوم الطبيعية . اختصاصه الاصلي الذي كان قد درسه في الجامعــة الامريكية في مصر وتخرج منها بماجستير امتياز .

« كنت نقيبا آنذاك ، آمر سرية المدرعات ( العام ١٩٤١ ) . كل الفلسطينيين الموجودين في بغداد قرروا التدرب على جميع انواع الاسلحة . وكلفت ان اكون المسؤول عنهم .

كنت جادا صارما . وكان عبدالقادر نموذجا رائعا للجميــع ، مثالا في الانضباط ، وقد تدرب بشكل جيد ، خاصة على المتفجرات ، التي كان امرها يهمه كثيرا . وقد دربه عليها الملازم الاول جميــل الخشالي ( ترك الجيش برتبة عقيد ركن متقاعد ) . كما دربهم على فنون قتال المشاة الضابط فخري احمد عارف . وكان تدريبنا لهم عنيفــا .

وكنا ، ضباط القوة الالية ، نتبرع بربع راتبنا لهم . لكي يتابعوا التدريـــب . كما اسكناهم معنا .

كان عبدالقادر مميزا عن الجميع ، وقد اتقن كل فنون القتال ، وكان مثال الجندي البارز اخلاقا وتدريبا .

بعد انتهاء تدريباته ، درس فترة من الزمن في الثانوية العسكرية ( هكذا كان اسمها ) مادة الفيزياء »(١) .

وحين ابتدأت معارك العام ١٩٤١ بين الجيش العراقي والجيش الانكليزي . ومن معه من قوات كلوب باشا الاردنية ، الذين اقنعهم الامير عبدالله ( الملك ) ذلك الحين انهم انما يذهبون الـــى العراق لمقاتلة الكفار . وكانوا يلقبون بذوي الزنار الاحمر . ومعهم جماعة من الآثوريين .

حين ابتدأت تلك المعارك ، جمع رفاقه الفلسطينيين ، وخطب فيهم : « ايها الاخوان ،ما احوجنا هذه الايام ، الى حكم وطنـــي عربي صحيح . كنا حتى الان نحاول الاستفادة من التناقضات التي تحصل بين الدول الاستعمارية الحاكمة لبلاد العرب . فنلجأ اليـوم الى هذا البلد وغدا الى ذاك . ولكن تبين انهم في النتيجة واحد .. وقد كشفت لنا التجارب ، ان الحكومات العربية التي حاولنـــا الاعتماد عليها ، ماهي الا ظلال باهتة لتلك الدول التي تستعمرها ، ومازلت اذكر اخراجي من مصر ، واضطهاد رفيقنا الشهيد سـعيد العاص في الاردن ..

انها المرة الاولى في تاريخ العرب الحديث ، التي نرى فيها حركة وطنية صحيحة ، تحاول التخلص من الاستعمار ، وحكم البلاد حكما ثـــوريا .

وهكذا ، فان واجب دعمها والدفاع عنها هو واجب وطنـــي وقومي .

---

( ١ ) من ذكريات العقيد المتقاعد رشيد فليح .

لقد آوونا والجأونا من غير منّة ، وكان لنا الاخوة والاهل والوطن ، فهل نتقاعس عن مساعدتهم ، فنقعد جانبا ، نتفرج على معركتهم الضارية مع الانكليز وعملائهم .

لا تنسوا ان كل انتصار على هذا المستعمر الشرس ، هو انتصار لثورتنا عليه في فلسطين .

فان انتصر اخوتنا في العراق ، كانوا الملاذ والموئل لكل ثائر عربي . والرفد السخي لكل ثورة في الوطن العربي الكبير .

فهلموا ايها الاخوة الى الجهاد ، وتذكروا ، ان من يستشهد منكم هنا في العراق ، انما هو يستشهد في فلسطين ايضا » .

وهكذا شكل من رفاقه هؤلاء ، فرقة خاصة ، انضمت مع الفرقة الشعبية الاخرى التي قاتلت الى جانب الجيش . وكان منها قوات البادية ، وجماعة نصرة العراق ، الذين جاءوا من سورية .

كانت ابرز المعارك التي خاضتها الفرقة الفلسطينية ، بقيادة عبدالقادر ، هي معركة الفلوجة ـ صدر ابو غريب . البعيدة عن بغداد بضعة كيلومترات .

وقد ظلت ثلاثة ايام في قتال مرير . حتى ان المجاهدين لم يعودوا يعرفون بعضهم بعضا . لكثرة العرق والدم والغبار التي تغطي وجوههم .

وكانت هناك القوات الشعبية التي يشرف عليها يونس السبعاوي ( وزير اقتصاد ومحام شارك في الثورة واشرف بنفسه على القوات الشعبية . وحين انتصر الانكليز حاول ان يتابع المعركة واعلن نفسه حاكما عسكريا عاما ولكنه اعتقل واعدم مع القادة العسكريين للحركة ) .

---

(١) زكي عزيز رحيم . وكان نائب جمعية الدفاع عن فلسطين ـ شعبة الفضل وما جاورها منذ العام ٩٣٦ .

(١) عبدالهادي المختار احد رفاقه في سجن العمارة . يذهب الى ان عبدالقادر هو الذي اغتاله . اما المؤرخ عبدالرزاق الحسني فلا يقطع برأي حول هذا الموضوع .

وقد ساهمت القوات الشعبية مع الفلسطينية ، في تأخير دخول الانكليز الى بغداد مما افسح المجال للجيش العراقي للانسحاب منها وعدم الوقوع في قبضتهم .

« اشترك عبدالقادر مع الاخوة الفلسطينيين في الفلوجة . وقد قام بهجوم على الانكليز ومن معهم في سن الذبان ( بعد الفلوجة ) وكبدهم خسائر كبيرة . وقد (١) شاهدته بام عيني ، وكنت برفقة السيد يونس السبعاوي في جولة تفقدية على القوات ، يحتل ثلاثة مواقع ( خنادق ) ويرفع فيها العلم العربي بيده فوق جثث الانكليز .

كما قام بهجوم معاكس آخر . ساعده فيه شيخ عشائر فيتخان ابو ريشة ، عن ميسرة قوته . وقد غنم دبابة في ذلك الهجوم . وكان الجيش العراقي ، يغطي الهجوم بمدفعيته .

وكان بين القتلى الذين اوقع بهم عبدالقادر ورفاقه بعض جماعة ابو حنيك ( كلوب باشا ) الانكليزي وكان بعضهم من الانكليز ويرتدون العقال والكوفية للتمويه .

حين انتهت حركة الـ ٤١ الى ما انتهت اليه ، من مغادرة القادة الاربعة : العقداء الصباغ ـ السعيد ، شبيب والسبعاوي . ورشيد عالي وبقية الزعماء السياسيين العراق . الى ايران . ثم تسليمهم ونقل بعضهم الى جنوب افريقيا في معتقل « دربن » ثم اعادة بعضهم واعدامهم ، خاصة القادة الاربعة .

انسحب عبدالقادر وجماعته بسلاحهم . ووصلوا الى حي الاعظمية حيث حلوا فيه جماعة . وكانوا حوالي الثلاثين مجاهدا . كانت ام موسى زوجة عبدالقادر تطبخ لهم وتقوم على خدمتهم ، تساعدها بعض المواطنات العراقيات . ويبدوا انهم لاقوا كل اسباب الفاقة والضنك المادي تلك الايام . ولكنهم صمدوا .

وكان يقيمون حرسا منهم على الحي الذي يسكنون .

كان رئيس الوزراء وقتها جميل المدفعي فغض النظر عنهم ، لانه لم يكن يريد ان يقال عنه انه يعادي الفلسطينيين . وظلوا كذلك بعض الوقت الى ان اغتيل النشاشيبي .

# اغتيال النشاشيبي

كان فخري النشاشيبي ، احد كبار المتعاونين مع الانكليز . وقد صمم المجاهدون على اغتياله ، مهما كلفهم الامر .

وقد حاولوا ذلك اكثر من مرة . ارسلوا له في المرة الاولى ، فدائيا منهم . ركب حمارا ووضع على ظهره خضارا . وخبأ تحت الخضار كمية من الديناميت وعند خروج النشاشيبي من بيته ليستقل سيارته . فجر الديناميت . وصادف في تلك اللحظة مرور مصفحة انكليزية حجبت بينه وبين السيارة . فقتل الفدائي ، وكذلك الجنود الذين فيها واعطبت . ولكن النشاشيبي نجا من الموت .

وفي المرة الثانية . كان في القطار متجها الى مصر . فدخل عليه فدائي آخر ، مقصورة نومه في الدرجة الاولى ، وافرغ مسدسه في سريره . وصادف ايضا ان صاحبنا كان في مطعم القطار ، فلم يصب وقبض على الفدائي واعدم .

وشاءت الاقدار ، ان لا يقتل الا في بغداد .

ومنذ مقتله في العام ١٩٤١ وحتى الآن ، والتكهنات كثيرة حول ذلك .

بعضهم يظن ان عبدالقادر الحسيني قتله بنفسه (١) . وبعضهم يظن انه الوحيد الذي يعرف القاتل ، و .. الخ ولكن مما لاشك فيه ، انه هو الذي خطط لاغتياله ، أو اطلع عليه على اقل تقدير .

لقد حضر الى بغداد ، ونزل في فندق السندباد في شارع الرشيد ( ابن خلدون حاليا ) .

وقد اقام له الانكليز الحفلات الباذخة ، وابدوا اهتماما مبالغا به ، مما كان يسيء الى شعور الوطنيين العراقيين والفلسطينيين . « كان هناك شاب فلسطيني اسمه صبيح ( لا اعرف بقية اسمه ) متزوجا من ابنة سائق السيد كريم كنه . هو الذي نفذ حكم الاعدام بالنشاشيبي .

فقد جاءه قبل يومين من مقتله الى الفندق . وادعى انه يعاني من ضائقة مالية ، وانه يريد ان يلتحق بخدمته ، فانخدع به النشاشيبي . واعطاه مبلغ ثلاثين دينارا ، ووعده بعمل عنده .

فذهب صبيح واشترى بتلك الدنانير مسدسا حربيا ( ماركة ويبلي ) وفر في يوم مقتله ، ممتطيا دراجة عادية ، وكان قد رصد حركاته وسكناته جيدا ، وفي لحظة خروجه من الفندق . اطلق عليه عدة رصاصات فارداه قتيلا ، وتابع على دراجته بكل هدوء . وبعد مسافة قصيرة ترك الدراجة ، وحمله رفاق له كانوا ينتظرونه بسيارة في شارع جانبي ، وهرب دون ان يتمكن احد من القاء القبض عليه .

واختفى اسم صبيح ، ولم يعد يسمع به احد . وظهر مرة ثانية في العام ٤٧ في محاولة لاغتيال الملك عبدالله فقد وضع هو ورفاقه كمية من المتفجرات في مدخل قصر الملك . وفجروها ساعة خروجه من القصر . ولكن تأخر التفجير بضع ثوان ، مما افسح المجال للملك ، لان يبتعد قليلا ، وينجو . والقي القبض على صبيح مع عدد من الفلسطينيين . وعرفه الملك فاعدمه فورا[١] .

(١) هذه المعلومات من زكي عزيز رحيم الذي عرفني عليه السيد خيرالله طلفاح في جمعية المحاربين القدماء ببغداد .

# في ظلام السجون

بعد فشل حركة الـ ٤١ التحررية ، وتولي السلطات البريطانية الاشراف المباشر على شؤون العراق الخارجية والداخلية. قررت فتح عدة معتقلات لتجمع فيها كل من لا يساير الوضع الذي اعقب فشل الحركة .

ففتحت اولا معتقل « الفاو » وهو عبارة عن ست وثلاثين دارا اعدتها مديرية الميناء العامة لسكنى عمالها . بعد ان سيجتها بالاسلاك الشائكة . كما فتحت معتقلات اخرى في زاخو ودهوك والعمادية ونقرة السلمان وغيرها .

ثم قررت بعد ذلك ، ان تنشيء مجمعا للمعتقلين في ثكنات الجيش القائمة على الضفة اليمنى من دجلة في مدينة العمارة بعد ان سيجتها بعدة خطوط من الاسلاك الشائكة .

بعد اغتيال النشاشيبي . ثبت للسلطة ان الفلسطينيين هم الذين كانوا وراء الحادث . فاعتقلت حوالي خمسين منهم وعلى راسهم عبدالقادر وارسلت بهم في البداية ، الى معتقل « زاخو » في الشمال ، حيث قضوا قرابة سنة هناك . ولما تم انجاز معتقل العمارة ، احضرتهم جميعا اليه . وظلوا هناك ، حتى افرج عن كافة المعتقلين في اواخر العام ٩٤٤ حيث اخرجوا جميعا من العراق .

كانت شخصية عبدالقادر في السجن ، غريبة فقد كان زملاؤه في المعتقل يستغربون وداعته ولطفه بعد كل الذي سمعوه عنه فقد كان كثير التهذيب والدماثة . فقد كان قليل الكلام . يكثر من الصمت والتفكير . وغالبا ما يتحاشى الاختلاط المبالغ فيه بالاخرين . وكان همه الدائم وتفكيره الدائب في كيفية الخروج من السجن ومتابعة الجهاد . وكان يتمتع باحترام كبير لدى كل السجناء .

كان في ساقه عرج خفيف نتيجة جرح قديم في فلسطين ، وكان يكثر من المشي في السجن استعدادا للهرب ، الذي ظل يخطط له برغم عدم نجاحه فيه . فقد كان يخشى ان تعيقه ساقه عن مشي المسافات الطويلة في حالة الهرب . او في خوض المعارك مستقبلا .

لقد اختار غرفة صغيرة في المعتقل ، هي نوع من الحمام المهمل ، وسكنها لوحده ، لكأنها الصومعة . وكان لايجالسه فيها ، غالبا ،سوى السيد محمد درويش المقدادي .

كانت تغلب عليه شخصية المتصوف في الثورة والجهاد . همه الاول والاخير .

« كانت علاقتي الشخصية طيبة بالمقدادي . وفيما انا ازوره ، اقبل علينا عبدالقادر . وابتدرني قائلا : انك كتبت عن قضية فلسطين كثيرا . وكنت تخطيء حينا وتصيب أحيانا . وقد فاتك ان قضية فلسطين ليست نبت وعد بلفور ولا هي نابعة من تفكير البرلمان البريطاني في ايجاد وطن قومي لليهود في غانا منذ مائة عام .

انها قصة دولة اليهود في فلسطين وحدودها وملاكها وتفاصيلها دونت جميعا في التورات ، تدوينا كاملا في الاصحاح الثاني عشر . ( الرب لايرام وقال : لنسلك اعطي هذه الارض . من نهر مصر الى النهر الكبير ( الفرات ) ) . وكذلك في الاصحاح الخامس عشر والسابع عشر والسادس وكلها في سفر التكوين .

وقد نقلت ما املاه علي في كتابي تاريخ الوزارات . اثناء بحثي عن الصهيونية ومشكلتها ».(١)

---

(١) المؤرخ عبدالرزاق الحسني .

# بعد قرار التقسيم

حين اخرج عبدالقادر من العراق . ذهب الى مصر مرورا بالسعودية . وهناك أقام معسكرا للتدريب في منطقة بورسعيد . كما كان يذهب الى ليبيا ، كلما توفر لديه مبلغ من المال ، ليشتري سلاحا وذخائر ، من مخلفات حرب العلمين هناك .

في هذا الوقت ، عاد الى فلسطين جمال الحسيني رئيس « الحزب العربي » من منفاه في روديسيا .واجتمعت الاحزاب والقوى الوطنية ، وشكلت لجنة عربية عليا تضم جميع الاطراف السياسية في البلاد .

وقد مثل الشيوعيين فيها خليل البديري . وجمعية العمال سامي طه اما المجاهدون من جماعة عبدالقادر فمثلهم فؤاد نصار .

لقد افرغ الانكليز البلاد من السلاح . فصادروا كل ما وصلت اليه ايديهم ، جمعوه من عرب فلسطين فقط . وفتحوا مستودعات جيشهم للصهاينة .

لهذا بذل عبدالقادر قصارى جهده ليشتري اكبر كمية ممكنة من ليبيا ، وعندما انتهى من عملية التسلح تلك ، عاد الى فلسطين ، حيث قرر ان تكون بلدة « صوريف » في قضاء الخليل بلدة ابراهيم ابو دية مقرا له . وكان قرار تقسيم فلسطين قد صدر عن الامم المتحدة فتسلم قيادة جيش الجهاد المقدس ، وبدأ يهيىء كل شيء لساعة الصفر ، حيث يعلن الثورة الشاملة ، مستغلا موجة الاضرابات التي عمت البلاد .

« جين سمع بدخول « جيش الانقاذ » ضرب كفا بكف وقال لنـــا :

ـ ماذا تنتظرون ان يرسل لنا حكام العرب ، ومعظمهم مرتبط مباشـــرة بالانكليز ؟ » .

رغم ذلك ، حاول الاستفادة من وجود هذا الجيش ، وجرب ان يستعين بمدفعيته الموجودة في منطقة « جنين » ليجابه بها مدفعية الصهاينة . ولكن دون جدوى .

كان القائد العام لذلك الجيش هو الملك عبدالله والقاوقجي ، الذي منحه الملك لقب باشا ، يأتي من بعده .

ولم يكن عبدالقادر لينسى بعد ، فرقة الجيش الاردنـــي ( جماعة الزنار الاحمر ) التي كانت مع الانكليز في العراق ، وكانت لها اليد الطولى في القضاء على ثورة الواحد والاربعين ، وقد ادخل الملك عبدالله في وعي جنودها ، انهم انما يذهبـــون الى العـــراق لمحاربة الكفـــار .

وقد وافق شكري القوتلي ، رئيس جمهورية سورية آنئذ ، على تعيين القاوقجي ، ودعمه ، لانه كان على خلاف مع عبدالقادر . وقد غذّى القوتلي ذلك الخلاف ، فاتسعت الهوة ، ولم يعد بالامكان التنسيق بين جيش الانقاذ وجيش الجهاد المقدس . وقد ترك ذلك أسوأ الآثار على سير المعارك فيما بعد .

عندما وصلت الاسلحة ، جمع المجاهدين وشكل مجلس قيادة الى جانبه ( شيء يشبه الاركان ) . فقد اصبح ذا خبرات عسكرية واسعة . خاصة بعد أيام بغـــداد .

كان معه ابراهيم ابو ديه مسؤولا عن العمليات . وهو ، مـــن أعنف وأجرأ قادة جيش الجهاد . وقد جرح في الـ ٤٨ وذهب الى بيروت للتداوي ، حيث توفي متأثرا بجراحه .

كما كان قاسم الريماوي ، أمينا لسر الجهاد المقدس .

اما مالك الحسيني ، فكان مسؤولا ماليا .

« اما انا ، فقد بقيت مسؤولا عن التموين في القدس ، وقد كلفت مع ابو دية بالقيام بجولات في القرى ، وقد شكلنا في كل قرية فرقة مع مدربها » .

انتقل عبدالقادر بعد ذلك الى شمال القدس ورامالله . وكان هناك موسى شيبان ( من يبرود في سورية ) . وكانت مهمته « الفزعات » اي النجدات السريعة .

كان اكثر ما عانى منه عبدالقادر ورفاقه هو عدم انتظام دعم الدول العربية ، والعراقيل التي كانت توضع في طريقهم .

مثلا ، جاءت مساعدات للمجلس الاسلامي الاعلى ، الذي يرأسه المفتي ، ويشرف على شؤون الجهاد المقدس ، تقدر بـ ٧٥ الف ليرة استرلينية . فجمدت تلك المساعدات ، ووضعت بتصرف الجامعة العربية ، حيث تسلمها عبدالرحمن عزام باشا ، نتيجة لتدخل الانكليز .

وقد حاولت الجامعة يومها ان تشكل فرقة لتصرف عليها المبلغ .

وفعلا ، جمعت مائة جندي ، كل ببندقية ، بقيادة منير ابو فاضل ، ووضعتهم في القلعة ، وقد دافعوا ، للحقيقة ، عن القدس القديمة .

كان عند الصهاينة مدفعية ، ولم يكن بايدي الجهاد المقدس شيء منها . فاتصل بالقاوقجي يطلب منه بعض المدافع . فرفض اعطاءه اياها .

عندما ذهب الى دمشق ، في رحلته المشؤومة . قابل هناك اللجنة العسكرية المسؤولة عن جيش الانقاذ . كانت مؤلفة من طه الهاشمي واسماعيل صفوت وتحسين باشا العسكري وصبحي الخضرا .

وقد حاول معها عبثا ، الحصول على بضعة « هاونات » .

نبههم الى خطورة الوضع في القسطل . قال لهم انها اذا سقطت فهذا يعني سقوط القدس . فأجابه الهاشمي .

ـ لتسقط

ثم انتبه الى خطورة كلمته فاعقب ،
لاننا سنسترجعها فيما بعد .
منطـق عجيب .

بعد ايام سقطت القسطل . كان ذلك في اول نيســـان ٤٨ ، تماما كما توقع عبدالقادر .

مر عليهم للمرة الاخيرة مطالبا بالسلاح والمدفعية . قالوا له :

سقطت القسطل ، وعليك ان تسترجعها فان كنت عاجزا ، فقل لنا لنعهد بهذه المهمة لغيرك .

فاجابهم :

ـ الصهاينة يستعملون الطائرات والمدفعية . اعطوني بعض المدافع وانا كفيل بالنصر .

فوعدته اللجنة ، بتزويد القدس بمائة وخمس بنادق للدفاع عنهـا ، على ان تصل في وقت لاحق .

عندها استشاط غضبا وصاح فيهم :

« سأحتل القسطل . وسأموت مع اخواني المجاهدين علـى ترابهـا » .

ومر على جماعة الهيئة العربية العليا . وكان مركزها في بيت الشيخ تاج بالحلبوني ( أضيف اليه بعض الزنزانات الان واصبـح مركزا شهيرا للمخابرات والتعذيب ) مرعليهم يطالبهم بمبلغ مـن المال ، كان قد وضعه بامانتهم . فاعطوه جزءا يسيرا منه . واعتذروا بعدم توفر بقية المبلغ لديهم .

قال لهـم :

« انا ذاهب لاستشهد . ساحررهـا بصـدري ـ يعني القسطل ـ » .

وذهب رأسا الى القسطل ،

« كنت جريحا في المستشفى . مر علي ومعه الدكتور قاسم الريماوي .

وصل القدس قبيل المغيب . ذهب قاسم ليستريح . اما هو فتابع الى القسطل .

كان المسؤول فيها ابراهيم ابو دية ومعه كامل العريقات .

حين عرف بوجود أبو دية في مركزه لحق به ووراء «القرعة» .

واكتشف ان الصهاينة يحاولون احتلال القسطل من جديد . أو هم لم يحتلوها بكاملها في الواقع ، وانما يتمركزون في اجزاء منها ، وان ابو دية ورفاقه ما يزالون يقاومون .

قبيل المعركة مباشرة ، عاد فطلب من القاوقجي ان يعيره بعض « الهاونات » التي في حوزة جيش الانقاذ . او يدعمه ببعض القصف المدفعي لقوافل امدادات العدو وبعض مواقعه ، ولكنه رفض طلبه مجددا .

« كنت مع الاستاذ ميشال في منطقة القدس .

التقينا بعبدالقادر الحسيني ، وكان قائدا لجيش الجهاد المقدس ، التابع للهيئة العربية العليا .

كان عائدا من دمشق ، اذ ذهب ليحضر سلاحا وذخيرة لقواته .

وشكا الينا من سوء معاملة الحكم له هناك . فقد كان شكري القوتلي على عداء مع المفتي الحاج امين . ولهذا وضع على رأس جيش الانقاذ القاوقجي . الذي لم يكن على علاقة طيبة مع المفتي وعبدالقادر .

كان لقاؤنا في مدرسة المأمونية . حيث تناولنا فطورنا معه . وقد لاحظنا عليه قوة الشخصية والشجاعة والتصميم .

بعد مغادرتنا بساعات ، سمعنا عن ذهابه الى منطقة القسطل.

وتطويق اليهود له ولجماعته . وانه طلب ارسال مدفعية من جيش الانقاذ فرفضت قيادته الطلب ، وتركتهم يذبحون .

في ذلك الوقت ، كانت اذاعة عمان تردد اغنية « خلي السيف يقول » على اثر استشهاده (!) » .(١)

(١) من حديث خاص مع الاستاذ صلاح البيطار . يراجع « كتيبة البعث » للمؤلف .

# اللحظات الاخيرة

حين احس الحسيني ، انه متروك وجماعته لوحـــدهم ، يواجهون قدرهم ، قرر ان يخوضها معركة انتحارية ، رافضا ان يقال ، ان القسطل ، احتلت دون معركة ، تماما كما فعل قبله باكثر من ربع قرن ، يوسف العظمة في ميسلون على ابوا بدمشق .

قسم جماعته الى ثلاث مجموعات . مجموعة للايهام بقيادة مالك الحسيني ومجموعة قيادة تبقى معه ، وهي نوع من الحرس لا اكثر .

اما المجموعة المهاجمة فبقيادة ابو ديه .

كان على المهاجمين ان يتقدموا عن طريق الحجر . ولكنهـم واجهوا قوة كبيرة من الاعداء . وخاضوا معها معركة ضارية . مما أخر دخولهم . فارسل لهم عناصر من مجموعته لنســف الحجر بالالغـــام .

اصيب ابو دية في المعركة . فتضعضع وضع جماعته ، رغـم انهم كانوا قد اصبحوا داخل البلدة .

وفي اللحظــة التي ســمع فيها عبدالقادر وجماعته صيـــاح « الله اكبر » وتوقفوا عن اطلاق النار . بانتظار ان يعرفوا حقيقــة الامــــر .

جاء احدهم ، وهمس في اذنه شيئا .

كان اسم ذلك الشخص احمد مطر الملقب باحمـــد الزط . وتبين فيما بعد ان اصله يهودي ، وان اســمه الحقيقي « شلومو عميره » وقد اصبح عميلا صهيونيا مشهورا .

اخذ عبدالقادر ، بعد ذلك الحديث الذي اسره في اذنه ثلاثة من الرجال وانطلق باتجاه الجامع ، ولم يعد أحد يراه .

وفي اليوم ذاته ، الثامن من نيسان ٤٨ . وجدوه في الجامع ، متكئا على درج المئذنة ، مضروبا في بطنه ، وبجانبه رشيشه «التومي» خال من الذخيرة .

كان حوله الكثير من الرصاص الفارغ . وآثار قنبلة اخترقت الجدار بقربه . وحواليه بضعة قتلى من اليهود . كذلك وجد بعضهم خارج الجامع .

لقد اصيب بعدة رصاصات وشظايا ، وقدر ان يكون قد توفي نتيجة للنزيف . لقد وقع في كمين مهيأ لاغتياله . فقاتل ومن معه حتى الرمق الاخير .

ما سر تلك الكلمات التي همسها ذلك الشخص المريب في اذنه وذهب معه دون ان يعرفه احد ؟

ولكن مما لاشك فيه ، انها هي التي قادته الى الكمين .

في اليوم التالي ، وفي الوقت الذي كان رفاقه يشيعونه في القدس . تم للصهاينة احتلال القسطل ، لقد اصبحت طريق القدس والقرى المحيطة بها سالكة أمامهم .

من غرائب الصدف ، ان عبدالقادر استشهد قريبا من المكان الذي استشهد فيه سعيد العاص قبل اثني عشر عاما .

يومها جرح في المعركة . ولكنه عاش ليعاني تلك المآسي .

لقد أوفى بعهده لرفيقه في الجهاد ، فحمى القسطل بدمه ، ساعة احتاجت الى الحماية .

# وداع الفارس

اليوم التالي لاستشهاد فارس القسطل ، كان يوما مشهودا في تاريخ القدس لقد نزل فلاحو القرى وفقراء الارياف من اقاصي البلاد الى المدينة العتيقة ، فغصت شوارعها وساحاتها بهم .

وكان احساس بالفجيعة ، يسيطر على الجموع .

ليس غريبا ان يستشهد قائد ثورة .

ولكن الغريب ان يغتال اغتيالا . فحين حرموه من السلاح والذخيرة . حين امسكوا عنه كل الطاقات المادية الضرورية للمعركة ، خيبوه واضطهدوه ، وضعوه امام الاختيار الصعب . فاقدم وهو عارف سلفا انها النهاية ، كان يعرف ان هذه المعركة ليست كسابقاتها ، وانها نهاية اللعبة الاستعمارية في فلسطين . وان دور « الاخوة » العرب من الحكام والانظمة العميلة واضح وضوح النهار بالنسبة لكل ذي عين ترى ، وعقل يفكر وحس ذكي .

وكان جديدا على تاريخ الثورات العربية ، في تاريخنا الحديث ، ان تأخذ طابع الثورة الفلاحية ، من حيث هي تدري أو لا تدري .

لقد كان اعتماد عبدالقادر على الفلاحين والبسطاء من الناس عفويا ، وناجما عن تجربة معاشة . فاذا هو ملتصق بهم ، واذا هم اكثر التصاقا به . اذا هو الرمز والقائد والمثل الاعلى .

كان مشهدا رهيبا ، ان ترى الرجال ، وقد احتقنت عيونهم بالدماء ، كل يقبض على بندقيته بايد مشدودة ، وقد خيم عليهم ذهول كثيف ، وفي قلب كل منهم حرقة وحسرة ، خيبة ومرارة .

« حين انطلقت الجنازة ، ارتفعت زغاريد النساء من كل جانب . وحين انزل الجدث المسجى الى اعماق التربة ، انفجر الرجال بالبكاء ، وما اقسى ان يبكي الرجال ، وانهالت البنادق خلفه . كان كل ثائر من اولئك الفلاحين والفقراء ، يلقي ببندقيته ارضا وهو يقول ، وكلهم يردد :

« بعد عبدالقادر ماعاد تسوين . » وفجأة ران صمت عميق على الجموع ، وارتفع صوت شاعر ، كان ما يزال في شباب شعره ، هو الشهيد كمال ناصر . وقد كان منذ تلك الايام ، يحس مسبقا ، انه منته الى شبه هذه النهاية . من عرفه فيما بعد ، وخاصة قبيل استشهاده في بيروت ، كان يعرف انه ، ايضا ، يمشي لنهاية عن قصد . أو يكون ذلك قدر كل الشرفاء من ابناء شعبنا ؟

كان عنوان قصيدته : « مصرع البطل » يقول في بعض منها :

ايها الموت ته علينا وفاخر لم يطش سهمك اللئيم الغادر

انت لم تطوه صغيرا ولكن
قد تداعت في مقلتيه الكبائر

انت لم تطوه جبانا ولكن
قد تهادى اليك نشوان ظافر

كم تحاشيت ان تراه فألوى
يتحداك رابط الجأش ثائر

* * *

زارك اليوم فارس عربي
عانقيه ورحبي بالزائر

زارك اليوم فارس عربي
عانقيه فذاك عبدالقادر

وعاد اولئك الثائرون ، يجرجرون احزانهم ، ليتابعوا المعارك المتفرقة . او ليقوموا ببعض العمليات ، زمرا وفرادى ، فقد دخلت الجيوش النظامية ، ودور الجيوش النظامية في ضياع فلسطين يعرفه الجميع .

كان انطفاء نجم عبدالقادر ، ايذانا بانطفاء مؤقت للثورة في فلسطين .

# في حي الاعظمية ببغداد

ـ اذهب اليه وستجده في مقهى شعبي صغير ، خلف مسجد الامام الاعظم . مقهى لا اسم له . يضع صاحبه مقاعد خشبية عتيقة يسمونها تخوت ، فرشت بالحصر الخشنة . يتكيء اليها ليل نهار ، شيوخ الحي ، يشربون الشاي ، ويعيشون على ذكريات الايام الخوالي .

اسأل اي انسان عنه هناك يعرفه ، يكفي ان تقول اين «عون» وسيدلك عليه العشرات . لقد كان عون في الاربعينات في حي الاعظمية ، لما جاء عبدالقادر ورفاقه ليقطنوه . هو استأجر لهم البيت ، وهو الذي كان يقوم على رعايتهم والاهتمام بهم . وحين كان يحس بمدى ما يعانون من الضيق ، كان يذهب ويجمع لهم التبرعات سرا ، ويأتيهم ببعض ما يقيم أودهم .

ظل معهم طوال الاشهر التي قضوها في الاعظمية . وحين اعتقلوا واودعوا السجن ، ظل على عادته ، يجمع لهم التبرعات ويذهب بها اليهم في سجن العمارة .

وحين كانت « ام موسى » زوج الشهيد عبدالقادر تقيم قريبا من السجن ، عند احدى العائلات العراقية ، لتظل قريبة من زوجها ورفاقه . كان ما يألو يطل عليها من حين لآخر ، يؤمن لها حاجاتها ،ويقدم لها جزيل الخدمات .

حين وصلت مقهى المعظم ، وسألت عن عون ، اشاروا الى شيخ قارب السبعين نحيل العود ، ذابل النظرات ، يرتدي « دشداشة » قديمة ، وقد اتكأ الى التخت ، مادا احدى ساقيه ، في لا مبالاة عجيبة ، وهو يستغرق في رحلة صمت وشرود بينما يرتشف شايه على مهل ،

وحين انتبه الي قال : ها ... دون ان يلتفت . قلت :

– يا عم عون ، دلوني عليك ، لتدلني الى البيت الذي كان يسكنه المرحوم عبدالقادر وجماعته . فتنبه كله معا . وتطلع الي بعينه الضيقتين ، وهما تخرزان ، لكأنني احد عملاء الانكليز الذين كانوا يأتون للتجسس عليهم . وحين اطمأن الي ، قام امامي ، دون ان يتكلم . مشى ، ومشيت وراءه .

حاولت ان استدرجه الى الحديث في الطريق . فكان يستمع الي دون ان يحير جوابا .

كان ملولا ، ضجرا ، وحزينا .

– مر زمان يا بني . وانا رجل كبير . لا تلح علي باسئلتك . جئت تسأل عن البيت . وسأدلك عليه وكفى ، اتبعني .

بعد قليل ، تنهد وقال :

– احس ان ايامي اصبحت معدودة لقد عشت اكثر مما يجب .

حين وصلنا الى البيت طلبت اليه ان يبقى معي ، فلم الق اي جوا باشار الى البيت على قيد خطوات منه ، ثم ادار ظهره لي ومضى . كبدوي يفز السير في صحراء مجهولة ، لا يتبعه غير ظله ..

ظللت ارقب ظله المبتعد حتى اختفى في العطفة التالية .

اقتربت من البيت ، كان بابه كبيرا ، من الخشب العتيق ، وله مدقة يدوية ضخمة . طرقت ، فلم اسمع جوابا . وحين دفعته انفتح ، كان كل شيء يشير الى انه بيت مهجور . تداعت بعض

جدرانه ، وجفت حديقته ، سوى من نخلتين اثنتين ، كانتا اقوى من الزمن والجفاف . وثمة اشجار يابسات ، في بعضها بقايا خضرة واجفـــة .

وبينما كنت أتأمل الردهات من خارج ، وقد اكلها الغبـــار والاهمال . سمعت حركة في البهو الكبير ، واذ دفعت بابه ودخلت لاستطلع الامر . كان يقف في نهايته . وبيننا ، كانت تنسكب حزمة مـــن ضـــوء الشمس ، ، انحدرت من فتحة في السقف المتآكل ، حاولت انلا اتقدم اكثر ، فاشـــار الي بيـــده اشـــارة فتوقفت كنت بين المصدق والمكذب ، وقد اصاب كل افكاري نوع من الشلل وعدم القدرة على الحركة .

كان ربعه ، اقرب الى الشقرة ، عيناه واسعتان . على شيء من الخضرة المعتمة . ترتسم على شفتيه ابتسامة خفيفـة ، ثابتة وفي عينيه اشفاق وعطف .

وكان يستحيل عليك ان تحدد عمره ...

فركت عيني . اسعفني لساني على الحركـة ، فانطلقـــت الاسئلة تتدافع من فمي

ـ هل انت عبدالقادر حقا أم انك شخص يشبهه . وماذا تفعل في هذا البيت المهجور . الم تستشهد في العام ٤٨ ، فكيف عـدت في العام ٧٦ . وهل يستيقظ الموتى من قبورهم . الا يقولون بان طريق القبر مسدود أ .. أ ...

وتحركت شفتاه عن كلمات ، انطلقت بصوت محشرج عميق ..

« ان المأساة تتكرر . انهم يقتالون شعبنا وثورتنـــا الآن في بيروت ، وقبلها في عمان ..

ولكن فاتهم ان شعبنا يستعصي على الفناء ...

ان المأساة تتكرر .. ان المأساة تتكرر ...

وابتدأ الشبح بالانسحاب وئيـــدا ..

حاولت التحرك صوبه ولكن اشارة اخرى من يده سمرتني في مكاني .

وحين اختفى أو كاد في الدهليز المعتم الذي جاء منه ، صرخت به ان يتوقف ، ان يرد على اسئلتي ...

ولم يأتيني من الفراغ المعتم سوى اصداء كلماته ..

ان المأساة تتكرر ان المأساة تتكرر ....

حين استفقت على نفسي في موقفي الغريب ذاك ، عـــدوت مسرعا الى الدهليز . لم يكن هناك من شيء ، حتى ولا اثر ..

وانطلقت بعض الطيور من وكناتها ، فاجفلت متراجعــا ...

عدت الى بيتي لادون ما شاهدت أو ما خيل الي انني شاهدت . ومضت بضعة ايام . احسست فيها فجأة بشوق الى رؤية عون ، فهو الشاهد الاخير الذي يمكن له ان يشرح لي الآن .

حين وصلت الى مقهى المعظم ، وسألت عنه . اشاروا بصمت الى مكانه الخالي .

ـ ولكن اين هــو . ؟ .

ـ لقد اعطاك عمره البارحة ...

اي انه قد مات هو الآخر . قد غاب في ســرداب معتـــم ، لا قرار لــه ...

وعدت لا احمل معي سوى حزن عميق كأسف لا تفسير له .

# الفهرست

تصميم الغلاف : راجحــة القدســي

التصميم الداخلي : نجم عبد الله كاظم

الخطوط : رضا الخطاط

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغـــداد
٥٤٨ لســـــنة ١٩٧٧

دار الحرية للطباعة ـ بغداد

١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com